

قصة من كتاب "من ظلال الأمس" للدكتور فؤاد سلوم
--- قصص تراثية ---

الإسكافي والحكومة

أخبرني والدي الإسكافي، قال:

كانت طرابلس، في بداية صبانا، "البندر"¹ الوحيد الكبير في شمالي لبنان. أما ما تبقى منه فريف لها، فيه المزارع والقرى، وفي أحسن الأحوال، بلدات كبيرات لا تُغني سوقها شيئاً عن الحاجة إلى أسواق طرابلس الغنيّة التي كان أهل الشمال يتبضعون منها كلّ حاجاتهم، ما صغر وما كبر، من "أقراص النيل" والصابون إلى المساند والفرش والجرار، إلى الأرز والحلاوة وراحة الحلقوم، إلى البرتقال و"المراكبي"² و"قصب المص"³، خصوصاً زمامير الأطفال... وكانت وسائل النقل إليها أقدامنا، والدواب لحمل ما يعجز بنو آدم عن حمله.

يومئذٍ كنت أتردد إلى طرابلس كثيراً، وإلى سوق الكندرجية بالذات، أتكسب في معرفة أسرار الصنعة، أنقوي. في هذه السوق تعرّفت إلى حسن الإسكافي، فأحبيته وصادقته. كان حسن إسكافياً مشهوراً تعرف أخباره طرابلس والجوار. لم تكن شهرته تقوم على حذقه الصنعة أو لتمييز محترفه عن محترفات الشارع سعةً وغنىً في البضائع والنظافة. كان الإسكافي حسن مثله مثل غالبية الأساكفة، في الشارع، حذقاً ومهارة. كذلك كان محترفه. قبوة عميقة من قبوات الشارع الضيق الظليل، تعلوه بيوت سكنية ورفارف، وكانت تختلط فيه أصوات الشواكيش مع تخبيط البسط والحصر على السطوح، مع تصايح النساء والأطفال، مع صخب الباعة والسابلة... أما شهرة حسن فكانت تقوم على مزايا في شخصه، يتحلّى بها أو تشينه، فيُحبّ أو يُكره بحسب رؤية الناظر إليه، إذا كان منفتحاً ومتساهلاً وأنيباً مثل هؤلاء الأكثرين في المجتمع الطرابلسي _ أم كان مترمّناً أو حاسداً أو مغرضاً. _ وقاتل الله الغرض إذ ليس صاحبه بشاهد عدل _.

1 - السوق. فارسية.

2 - الليمون الحامض. التسمية طرابلسية.

3 - قصب السكر. تسمية شعبية.

لكنّ حسناً كان مُبتلىً ببليّتين: أولاهما أن كانت له زوجة شابّة، جميلة، لعوب! والثانية، كان معاقر خمرة، ماجناً إلى حدّ ما، قلماً وجد إلاّ سكران. ولعلّ هذا كان من أسباب خفة دمه، لما يصدر عنه، في أقواله وأفعاله، من عفوية واستخفاف بكلّ ما يتقل ويكدر. وطباع البشر أميل إلى التخفّف من أُنقال وأكدار. أمّا أنّ في خلّته هذه مخالفة لشريعة الجماعة، فهو ممّا زاد في شهرته، لأنّ ذلك كان من قبيل "خالف تُعرّف" أو "اكسر مزارب العين تشتهر". مع ذلك كان أهل السوق يحبّون حسناً، فإذا لامهم لائم بالقول عنه: مرتكب؛ كانوا يجيبون: كفره يُلزمه ولا يُلزمنا. حسابه عند ربّ العالمين وليس عندنا... ذلك لأنّه، فوق خفة دمه، كان ذا نخوة، كريماً، يسدي المعروف بطيب خاطر، يعطي ولا يمنن، أميناً على السرّ، حافظاً للغيبة، دافئ اللسان.

وكانت دلال، التي صارت زوجة حسن، تقطن، مع أهلها، أحد المساكن، في طابق مقابل لدكان حسن، فنشأت على السّماع بصيته الحلو، وعلى الإعجاب بخالته. بل هي قد عرفته مباشرة قبل اكتمال أنوثتها، عندما كانت تحمل إليه، بين الحين والحين، أحذية لأهلها ليصلحها. بعد أن نضجت وتحجّبت، صارت تراقبه، وهو يعمل في دكانه، من خلال شعريّة شبّاكها، فتطرب لصوته وتأنس لحركاته التي فتنها. كان حسن يقبل على عمله وهو في انشراح دائم، يدندن، بصوته الرخيم، أغنية يوقّع على لحنها ضربات شاكوشه أو يقوم بحركات تمثيلية مثيرة للبهجة والضحك، كأن ينهض حاملاً سكينه ليقطع نعلًا، فيمشي بها مشهورة فوق رأسه، يحدو كمن يهجم لينحر عدوّاً؛ أو يخرج إلى الضوء، أمام باب الدكان، يحمل فرعة درزها للتوّ، يتأمل دقّة الدرز وخلوّه من العيب، فيفتنل راقصاً، معبراً عن رضاه؛ ثمّ يعود لينهي حذاءً بين يديه؛ فإذا كان هذا على حدود البلاء يرميه في زاوية الدكان مقلداً رمي الطّابة في السّلة، وإنّ جيّداً، محترماً على حدّ قوله، يحمله بكتنا يديه الممدوتين قبالة صدره ويمشي به كمن يدفع عربة أمامه، ليضعه على رفّ في الصمّدة التي على الحائط المقابل. ثمّ يعود إلى كرسيه خلف الطّولة، يضع كفّه على خده، قبل أن يبدأ بعمل جديد، ويطلع بموآل يعبر فيه عن ارتياحه، فتأتيه نداءات جيرانه، وقد استحسنا الموآل:

- اطلع. اطلع يا حسن!

فيطلع حسن ناشراً صوته على الملاء، يطرب أهل الشّارع، ويلامس في قلب دلال أوتاراً ترتعش بالحبّ، فتروح ترسل إليه، خلّسة، نظرات ولهي وابتسامات حالمة... وأحياناً تنزل وتعبّر الشّارع، أمام بابه، وهي في مُلاءتها وحجابها، تتأوّد في ثوب طويل، متهدّل على ردفين مليئين، واحد يعلو، وآخر يهبط، والخصر الضيّق الذي يكاد ينقطع، يفصل بين الرّدفين والنّهدين المنكبرين المرتجّين، فكأنّها تمثال حيّ للأنوثة في خاطر فنّان إغريقيّ. عندها يسمع حسن نحنات جيرانه،

فيخرج إليهم، بعد أن تعبر، واضعاً يديه في جيبه، منكساً طربوشه، نافشاً صدره، مبعداً ما بين قدميه، صارخاً في من يسمع:
 - دقوا ع الخشب يا جماعة!
 فتجيب أصوات:
 - يا أرض احفظي ما عليك

....هكذا نقشت قصة الحب بين حسن ودلال في سوق الكندرجية؛ فتقدم حسن من أهلها وخطبها، فوافقوا رغم تقدمه في السنّ عليها مقدار الضعف، وهو لم يكن، في ذلك الزمان، عائقاً قط؛ ولا يزال إذا كان في الصفقة طمعة! ...تمّ النصيب وانتقل بها من السوق إلى منزله في حيّ "أبو سمرا".

عاش حسن مع دلال، في السنوات الأولى، حياة زوجية كلّها هناء. دلال لذيذة، غنوج، مثيرة! وتغدق على حسن من عاطفتها الجياشة دققاً، وتمتعه بملذات الهوى طعوماً طيبة. ولأنّ حسناً يحبّ "الكيف"، و"الكيف" أنثى وكأس، كان له في أنثاه الجميلة، وفي كأسه ما أتمّ عليه سعادة، ما كان ليحلم بها قبل زواجه من دلال.

وراحت دلال، لتفتك أكثر في قلب حسن، تُغني مائدته بما توصي عليه من أصناف "المازة"⁴، تصلحها في أشهى مذاق، فتطيب الكأس في جوّ عامر من الألفة والأنس... تطلب دلال الأصناف، حسن لا يبخل. تطلب من السوق خضاراً ولحوماً وفاكهة، ومعجنات وموالح وسكاكر... فليكن لدلال ما طلبت. تريد فساتين ومناديل وحرائر حميمة، وأكحالاً وأدهاناً ومزيّنات... ليكن لدلال ما أرادت. بل لتزيد دلال جمالاً فوق جمال يتباهى به حسن مدغدغاً رجولته، فالرجال الذين يعرفونه يحسدونه على حظوته بامرأة رائعة الجمال كدلال... ودلال ترغب في نزاهات وزيارات! فليكن لدلال ما رغبت فيه، أكان ذلك برفقته أم مع صويحباتها. لا يهمّ. حسن فضي العين، ما يسعد دلالاً يسعده...

لكنّ أيام المرء لا تصفو سماواتها على الدوام. الحياة أشواك وورود! على ما يبدو وأن الورد في حديقة حسن قد ولى، فإذا به يفيق على صبحٍ تشرينيّ غائم. لقد مرّت السنوات ودلال لم تتجب

⁴ - الطيب. المقبلات ذات الطعوم الطيبة. فارسية.

لحسن ولداً. حسن يشتهي، الآن، أن يصير أباً. زار بها الأطباء، ونذر النذور للأولياء الصالحين، واستكتب لها التعاويذ والرقى... لكن ما نفع...

وتغيّرت دلال في عيني حسن، أو كأنه اكتشف، فجأة، أنها تبدّلت! كانت مشوقة القوام، ضامرة، فصارت مربّعة، مدوّرة، ثقيلة الأرداف، مرتفعة المؤخرة، على نتوء كرفرف تستقرّ عليه حبة الحمص. امتلأت خاصرتها واکتنتزتا واتصلتا ببطن بارز من غير حمل، يتراخي فوقه ثديان جافان، لا يعدان بحليب. لكنّ الوجه، على امتلائه الجديد نوراً بالنضارة واللون الأشهى. وبقيت العينان الواسعتان السوداوان تتألقان بالإثارة، والشفتان المكتنزتان صار الأحمر الطبيعيّ فيهما أعمق، صارتا أشهى. تغيّرت دلال بمقياس الجمال، لكنّها بقيت شهية، ولو غير مثمرة...

وتوزّعت نفس حسن بين القبول بحظّه وبين التمرّد على واقعه ورفضه، فساعت حاله. صار يزيد في معاقرة الخمرة، فيشرب خارج البيت، في الحانات أو عند الأصحاب، ويعود أواخر الليل منهوكاً، "مجعلاً"⁵، متسخاً، يرتمي على السرير وينام، غالباً، بثيابه... ومتأخراً يفيق، غاضباً، مشاكساً، متمراً يخيف دلالاً، ويلوح، أحياناً بالطلاق.

لم تهن نفس دلال عليها! صارت مهملة، مهانة بعد ذلك العزّ. فصار أمر الدفاع المشروع عن النفس، وبكلّ الوسائل، ملحاً. كيف؟

وهلّ تعدم الأنثى الجريح وسيلة للردّ والدفاع عن النفس؟
لتجرب، أولاً، سلاح الغيرة. لعلّ الحبّ القديم، في قلب حسن، يُبعث حياً!
الغريم؟ وقعت عليه في عزّ الطلب: "أبو صطيف!"

أبو صطيف كان صبيّاً، من أولاد المحلّة، في عمر دلال. استهوته وفتنته أيام كان يخدم عند الجندرية في "كركون"⁶ السويقة وفي السراي الحكومي على التلّ. كان يأتي بجزماتهم وقشطهم⁷ سوق الكندرجية لرتق ودرز ودهن، وينتظر ريثما يتمّ إصلاحها ليعود بما حمل. كان يتسمّ أخبار دلال، ويلحقها في روحاتها وجيئاتها. يبقى بعيداً، وراءها، لا يجسر على التحرشّ بها، أو حتّى

⁵ - غير مرتّب. عامية من أصل سرياني.

⁶ - مخفر الدرك. تركية. والجندرية هم رجال الدرك وكان اللفظ هو المعتمد آنذاك.

⁷ - جمع قشاط وهو سير من جلد. عامية.

مكالمتها. يقف سحاباتٍ من النهار قبالة بيتها ينتظر طلةً لها من شرفة، أو تمريرة كَفٍّ من شبّاك، تفتح أو تقفل. دائماً عالق نظره في سماء بيتها حتى تكاد أن تتبيس رقبتَه وتبلىق⁸ عيناه. كان يهيم بها، وكانت تحسّ بهيامه ولا تنزعج. ولربّما دلّته بتلويحة أو ابتسامَة فتضطرم النار في قلبه... وكان أهل السوق يتندّرون عليه، فلا يعبأ. ولربما يتلاعبون بمشاعره فلا يغتاض. المهمّ أن تكون دلال هي الموضوع... إلى أن مكنت العلاقة بين حسن ودلال، وجدّ جدّهما، فزجر حسن أبو صطيف وحذّره، فغاب عن السوق حتّى كاد أن يصير نسياً منسياً.

مرّت أعوام على غياب أبو صطيف عن السوق، فعاد، هذه المرّة، وقد نما، وعلت قامته، واستوى كتفاه، وطرّ شاربه. اكتملت رجولته الآن، وصار على جانب من وسامة. صار يتجول في كلّ أحياء طرابلس جسوراً، واثقاً من نفسه، يققش بفنجانين بين أصابعه، وينادي:

- قهوى. قهوى بالهال. قهوى سادة. قهوى، قهوى...

لقد صار أبو صطيف قهوجياً جوالاً!

في السوق نُمي إلى أبو صطيف خبر دلال وما صارت تعاني منه مع حسن، فرق قلبه لحالها.

وأفاقت به الذكرى حيناً إلى الأيام الخوالي، أيام الهيام الأولى، فتمنى لو يستطيع أن يخطف دلالاً ويحملها على حصان مجنّح إلى مكان قصي لا يطالهما فيه حسن أو غير حسن، فيعوّضها سعادةً تستحقّها. لكنّ التربية الاجتماعية، في تلك الأيام، كانت تمنع على المرء أن يتدخل في شؤون العائلات الخاصة. ذلك كان من المحرّمات. لذلك لم يسع أبو صطيف إلى تواصل، ولم يخطّط لمشروع، بل راح يبيع قهوته في الشوارع، يتذكّر دلالاً مرّة، وينشغل عنها مرّات... إلى أن التقاها، صدفة، في احد الشوارع، مع جارة له، فبهت:

كيف كانت؟

كيف صارت؟

لكنّها دلال! عيناها، خدّاه، ابتسامتها!...

دلال أيضاً شدهت: أبو صطيف! صار رجلاً وسيماً...

⁸ - تتساوى قسمة سوادها مع بياضها.

آنذاك، عندما يكون الشارع خالياً من الرجال، كانت النساء يرفعن البراقع السوداء عن وجوههن، فإذا التقين برجل غريب يرمين البراقع. الآن، دلال عرفت أبو صطيف فلم ترم البرقع. بل حتى تأملته بعينها اللامعتين، وهو يقف مبهوراً، ينظر إليها من غير أن يتفوه بكلمة. عجز عن الكلام. لكنها، هي، ابتسمت له وقالت بصوتٍ يسمعه:

- ابو صطيف؟! سملاً!⁹

تابعت دلال طريقها لا مبالية. لا مبالية؟! لا. كانت مبالية جداً. نزلت عليها المصادفة نزول وحي سعيد، فراح عقلها يرسم... أما أبو صطيف فبقي واقفاً، مبهوراً، ينظر أمامه، وكأن دلالاً لا تزال هناك تبتم له! ثم مضى ينادي:

- قهوى بالهال، قهوى...

وبقي فكره، مرّة يأخذه ومرّة يردّه إلى دلال.

- لم ترم البرقع... نظرت في وجهي ملياً. كأنّ عينيها قالتا شيئاً! ماذا قالتا?... لفظت اسمي. قالت: سملاً. ماذا يعني كل ذلك؟

لم يجد بو صطيف جواباً شافياً. بقي حيران!

ذلك اللقاء - الصدفة قد تكرر. كل مرّة كان احتفاء دلال بـ"أبو صطيف" أقوى، والإشارات أكثر دلالة... صارت الرسالة أوضح في ذهنه: دلال تريدني!

واندفع أبو صطيف وراء علامات الوحي الجديد. صار يقصد حيّ "أبو سمرا" حيث تسكن دلال، فيمرّ أمام بيتها مرّة في النهار، ثم أكثر من مرّة، ينادي بصوت صارخ على قهوته... وكانت دلال تخرج إلى السطّيحة سافرة، وبالقميص، تحمل ثوباً لتشره، أو لتأتي بالمكنسة، أو لحجّة أخرى، تجيد النساء اختلاق الكثير منها، متى أردن... ثم تحوّل نشاطها في الإغراء إلى الشبّاك المفتوح، تقف أمامه ترفع ساقها إلى ركنه، وتطوي ركبتيها، وتتطاول ذراعها العارية تنقصد مسح الزجاج، فيتراجع ذيل القميص لتبدو البطة الناصعة المكورة كأرنب أبيض، ناعم الملمس، يضغطها فخذ سمين، أملس، طريّ، مضيء، فيلتهب دماغ "أبو صطيف"، شاعراً أنّ هذه الحركات

⁹ - اسم الله. تعبير عن الإعجاب، ويذكر اسم الله درءاً لصيبة العين.

إنما تخصّه بها دلال. لقد علق، وكانت دلال سعيدة لأنّ المرحلة الأولى من خطتها قد أصابت نجاحاً!

لم يلحظ حسن أنّ شيئاً ما يجري حول بيته. بل كيف يمكن أن يخطر في باله؟... وراحت دلال تنتظر صابرة أن يلحظ حسن ما يجري، فتتحرق شوقاً لترى ردّة فعله. كانت تلعب بالنار! لكن، في ظلّها أنّها تلعب وحسب. وكى يستمرّ أبو صطيف في انجذابه إلى الجوار، وليثبت في إطار اللعبة، صار القميص يتراجع عن الفخذين أكثر فأكثر، وصار بندّه، مرّات، ينملص عن الكتف ليتكشف، من ناحية، عن ربوة بضّة تميل مبتعدة قليلاً عن ربوة قبالتها شبه مستورة، فيحترق الريق في حلق "أبو صطيف". كانت تمنّيه، وكانت أمنّيته أن ينبت في إبطيه جناحاً باشق ليحطّ أمامها على الشباك!... إلى أن صادف حسن أبو صطيف في الحيّ عندما جاء إلى البيت، ظهيرة يوم، مبكراً عن عادته في الغداء، فتنبّه إحساسه بأنّ شيئاً هنا على غير ما يرام. لكنّه لم يحرك ساكناً... في المصادفة التّالية ارتاب. فصار يفاجئ دلالاً في الحضور إلى البيت، في أوقاتٍ مختلفة من النهار... وكثرت المصادفات حتّى لم تعد مصادفات. في الأخيرة التي فاجأ فيها أبو صطيف قبالة الشباك، فار دمه، ونهره وحذّره، فتحدّاه أبو صطيف:

- أنا حرّ! أبيع في كلّ شوارع المدينة وأحيائها.

وصعد حسن إلى البيت قفزاً، مهتاجاً، ليجد دلالاً، الّتي كانت نبتتها ضوضاء الرّجلين، قد سوّت من شأنها وانصرفت تعمل، كالمعتاد، في شغل البيت. مع ذلك، ولفوران غضبه، شتمها وصفعها مرّات، فارتمت في زاوية الغرفة تنتحب في ضعف وانكسار، وتشهق ببراءة الأطفال الباكين، تقول، وهي تقارب ما بين فكّيها، وتبوق فمها، فيخرج صوتها طافحاً بالحنان:

- تضربني يا حسن؟ الله يسامحك... أنا شو عملت؟

فسكن جأش حسن. همّ بأن يراضيه ويواسيها... لكنّه تماسك وانفتل خارجاً ليفتّش عن أبو صطيف الذي اختفى.

وكانت دلال، في قرارة نفسها، سعيدة جداً.

في المساء، عاد حسن إلى البيت، تصطرع في نفسه مشاعر ونوازع... في مجلسه المعتاد وجد "الطبلية"¹⁰ مغطاة بقماش أبيض نظيف، مدت فوقه صحاف ملأى بالمازات الطيبة التي يحب. في وسط الصحاف قنينة طافحة وكأس مشعة وإبريق ماء مندى. دلال في زينتها جالسة تنتظره باسمه!...

نقل حسن نظره بين دلال وبين المائدة مرّات. ضعف. ندم. طفحت عيناه. لكنّه استذكر أبو صطيف فثارت شكوكه من جديد، فغضب وخرج حزينا إلى حانة يألفها عند الشاطئ، وشرب حتى انطفأ، فحملة أصحابه إلى ركن فيها، بات فيه حتى الصباح، ليعود إلى الدكان في حالة من يأس وضياع... ما كاد يستقرّ على كرسيه حتى استقرّه صوت ينادي:

- قهوى...

- هبّ حسن إلى ملاقة أبو صطيف شاتماً مهدداً.

فصمد له أبو صطيف راداً الشتيمة ومتحدياً. كادا يشتبكان، فسارع بعض أهل الشارع وفصلوا بينهما مهديين. تابع أبو صطيف طريقه. لكنّه ما لبث أن عاد بعد الغداء ينادي على قهوته مناداة تستقرّ حسناً، فخرج إليه بالسكين التي يقصّ بها النعل، فسارع الجيران وفصلوا بينهما لاثمين حسناً:

- عيب يا حسن! الرّجل يرتزق! لا يحقّ لك أن تمنعه.

الآن كبر المشكل.

ومضى نهار ونهارات آخر، من غير أن يستطيع حسن بلع الحادثة، وإن لم يعد يصادف أبو صطيف في حيّ أبو سمرا. لكنّ هذا بقي يعبر الشارع بقهوته غير عابئ بما حصل، فيتلاقى الغريمان حذرين متجانبين إلى أن لاحظ أبو صطيف أن حسناً يأتي إلى الدكان ويروح وزناره، تحت "السوكه"¹¹، يئنأ بجسم صلب. ففكر: سلاح! حسن يحمل سلاحاً. يخيفني، يهدّني. سأريه!

¹⁰ - طاولة من خشب، قصيرة القوائم حتى يستطيع الجالس على الأرض تناول ما عليها. من أصل فرنسي.

¹¹ سترة جاكيت دخلت التركيبة من اللاتينية

في ذلك الزمان، كان للحكومة أنياب ومخالب. من كان يجروء على حمل سلاح غير مرخص؟ بل من كان بإمكانه أن يحصل على ترخيص بسلاح مهما علا شأنه؟... كيف بإسكافي؟... في ذلك الزمان كان الذئب يرعى مع الغنم! كان الأمن ملء الوطن.

في يوم، بعد الغداء، كانت تعمر حسن سكرة غامرة! جاء أبو صطيف الشارع ينادي على قهوته، فقفز حسن إلى باب الدكان وصرخ به:
- ولاه! شو... -

لم يكمل حسن صرخته المهددة حتى انهارت مقاومة أبو صطيف، ففرّ راجعاً. لم يندهش حسن. أدرك أن غريمه، الذي له دالة على الجندرية، راح ليثني به، فاستعدّ قلبه ليوأجه بشجاعة...

بعد برهة دخل جاره إليه ملهوفاً، قال:

- عجل. دبر حالك. رجع أبو صطيف مع الجندرية...

عجل حسن بالخروج من الدكان متمراً قاصداً الشرّ. صرخ في وجه الجندرية بزارة أسد:

- زيح من الدرب ولاه! زيح من الدرب. اليوم يومك يا "عكاريت".

وهول يمشي موارباً، وجهه مرّة إلى الدورية ومرّة باتجاه مهربه نحو الأسواق الداخلية. كتفه مائل. يده مرفوعتان نصف رفعة، ممّا يجعل ذيل "السوكة" يقبّ قليلاً فتبدو قبضة المسدس السوداء أمام الأعين، فتتوهم الدورية المؤلفة من الشاويش ومرافق، يتبعهما أبو صطيف من بعيد، أنّ حسناً يسهل ليمناه سحب المسدس وإطلاق النار، فتتهيب الاقتحام... تابع حسن هربه في الأزقة الضيقة بين السابلة المذعورين، والمطاردون يتبعونه بحذر، يسرعون إذا أسرع ويتوقفون إذا توقف؛ وإذا نتع برأسه ملتفتاً صوبهم مشيراً بيمناه إلى خاصرته اليسرى صارخاً: ولك يا "عكاريت"... يرتمون بأجسادهم إلى جدران الأبنية لاصقين أكتافهم بها وأيديهم إلى جنوبهم... وطالت المطاردة من زقاق إلى زقاق يضيّعون حسناً مرّة، ويلمحونه أخرى. أعيوا فأرسلوا مخبراً من المحلّة، يتعامل معهم، إلى مخفر السراي على التلّ، يطلبون مدداً ليعزّزوا المطاردة الرهيبة التي أفلقت المحلّة؛ فما لبث المدد أن جاء: ضابط وثلاثة أنفار. رسم الضابط خطّه: ينصب كميناً مع نفرين عند مخرج الأسواق الداخلية. ينضمّ الرابع إلى الاثنين، فيستدرج الثلاثة الطريد إلى الكمين. واستأنفوا المطاردة فكأنهم وراء شبح يظهر ويختفي. يطردون ويقاطبون، يسوقونه في اتجاه محدّد... صبية وبعض رجال يتابعون الطراد، قلوبهم مع حسن، وأصواتهم تحذر:

- أجرم حسن. أجرم...
- حسن سكران. الله يستر!
- شو عن تعمل يا حسن، يا بطل.

فكان هذا الضجيج يزيد في رهبة الجندرية... إلى أن وقع حسن في الكمين! صرخ به الضابط:

- مطرحك. رفاع ديك.

كان يمدّ يده صوب صدر حسن بمسدس ملقّم:

- أوعا تأتي بحركة. ديك ل فوق، ديك ل فوق!

نقل حسن نظره بين الضابط ومسارب الشارع مقفلة كل منها بنفر، يصوب بندقية إلى صدر حسن. خلفه وصلت الدورية المطاردة، شاويشها يصرخ صرخة الظافر:

- وقعت يا حسن، أوعا تتحرك!

رفع حسن يديه عالياً، فتقدم الشاويش بخطى واثقة، شجاعة، يتبعه نفران حذرين!

ظل حسن يرفع يديه عالياً، هادئ الجأش، بيتسم ابتسامة غامضة. طرف "سوكته"¹² مرفوع لارتفاع اليد اليسرى. المقبض الأسود ظاهر فوق الزنار القماشى الأصهب... ضرب الشاويش يده بخفة، وبنشوة البطل الظافر سحب المسدس! القبضة صلبة، لكن المسدس رخو في يمينه!...

فتح يده مذهولاً، فانكشف المسدس الرهيب، مسدس المجرم الخطر، طريد رجال الأمن: إنه "كندرة" نسائية سوداء!...

"كندرة" نسائية جندت لها الحكومة مجمل قوّاتها من عاملة واحتياط!...

وانفجر حسن يقهقه ضاحكاً. صدره وبطنه يعلوان وينزلان مع موج ضحكه... وصفق الجمهور المجتمع. قهقهه وضج:

- آه يا بطل، يا حسن!
- لاه لاه يا حسن يا قبضاي شو عملت.
- كلّ عمرو حسن هيك. بالسلم مهضوم وبال حرب كمان.

¹² - الجاكيت. السترة. كانت اللفظة معتمدة آنذاك لا يعرف غيرها. الأصل لاتيني.

وخذ على تعليقات وسخرية من الحكومة.

كان الشاويش لا يزال مذهولاً. ينظر إلى "الكندرة" في يده وإلى الضابط قبالتة. لا يدري ماذا يفعل!... إلى أن جاءه الأمر من فم الضابط المستاء، والذي عالج الموقف قبل أن يتأزم بالخروج منه:

- سكر المحضر والحقني إلى السراي.
ورجع حسن مع الجمهور إلى دكانه بزفة عريس.